قصة قصيرة

نفحة من الايمان

حمد صالح

تسللنا بخفّة وحذر من خلال ثغرة كائنة في الأسلاك الشائكة المحيطة بالمعسكر. ثغرة منزوية أحدثها بالأساس تسلّل الجنود من المعسكر. تسلّلنا مستترين بالصخور السوداء الحادّة ومسارب المياه وأشجار التفاح والعنب المحترقة وعتمة ما بعد الغروب الخفيفة التي انتشرت على سفح الجبل منحدرين صوب القرية الصغيرة اللاّطية على سفح الجبل العملاق. واجب الدورية المسائية لم يبدأ بعد، ولهذا اغتنمنا الفرصة فحملنا بنادقنا ومضينا نهبط السفح الشاسع معقّبين أخدوداً جافاً حفرته مياه الأمطار وذوبان الثلوج، يتلوى بانحرافات مفاجئة بين صخور ضخمة وتراب متكلّس وجذور أشجار كبيرة أحرقتها القذائف، تاركين المعسكر ومدافعه ودباباته وشاحناته وأوامره المشددة وراءنا، فيما كانت القرية الصغيرة تبدو أمامنا، أو الأصح، أسفلنا، مثل كومة صخور متلاصقة عند أسفل سفح الجبل لا يميزها عن بقية الصخور والكهوف الجبليّة والحُفَر العميقة وأكوام التراب الأسود سوى شدّة تلاصقها وكثافة أشجارها وبعض الحيوانات الداجنة المتخاورة في دروبها وأعمدة الدخان الفسفورية المتصاعدة من جنباتها.

كنا ثلاثة عسكريين متنكبين بنادقنا الكلاشينكوف ومواصلين هبوطنا في باطن أخدود مجوف بحذر وارتياب نحو القرية الهاجعة في منفاها أسفل الجبل الهائل الضخامة. العريف أدهم جواد، وهو رجل فوق الخامسة والثلاثين، ضخم الجثّة، يحمل سُمرة أهل الجنوب الفاحمة وقابليتهم العجيبة على الثرثرة والغناء. وقح إلى حد السفاهة الصبيانية. يشرب الخمر بإفراط، ولا يجد غضاضة في مغازلة الغلمان واستصحابهم إلى أقرب مكان يقيه عيون الناس، حتى وإن كان ذلك خلف صخرة أو جذع شجرة أو في حقل حنطة. مترهل الكرش ولكنه نشيط الحركة، مغرق في جنوبيّته حد التوحش، ويغني الأبوذية بصوت شجي يذكّرك بأهوار الجنوب ومستنقعاته الراكدة وأحراش البردي الآسنة. حسبته في البدء يسخر منّا، ولكنه أصرَّ بإلحاح على تنفيذ الفكرة التي طرأت على بال الجندي الأول حمدان قادر، وحمدان هذا شاب لم يتجاوز العشرين من عمره، أنيق ولكنه مغرور إلى أبعد الحدود. يدّعي أنه من عائلة ثرية، ياقته دائمًا منشاة، وملابسه مكويّة، وحذاؤه ملمع ونظيف. يعتبر نفسه على درجة عالية من الثقافة، فهو ينظم الشعر الحماسي والغزلي وبلغة عربيّة سليمة ولكنه يجهل علم العروض، ولا أعتقد أنه سمع أو قرأ شيئاً عن الفراهيدي. كانت الشمس على وشك المغيب حين قال حمدان متحسراً وهو يمد يده باتجاه القرية الصغيرة أسفل الجبل:

ــ لماذا لا نذهب لنصلي في الجامع ونطلب من الله أن يغفر لنا ذنوبنا، المهمة صعبة، ونتائجها قد تكون وخيمة.

على الأقل نواجه ربنا نادمين ومستغفرين أفضل من أن نواجهه كافرين ومحمّلين بالذنوب.

تهلل وجه العريف أدهم المنتفخ الأوداج وهو ينظر إلى جامع القرية القميء.

ــ فكرة عظيمة. رحمة الله واسعة والدعاء في بيوت الله مستجاب... هيا بنا.

وهكذا ــ وبدون سابق تصوّر أو تخطيط ــ حملنا بنادقنا الأوتوماتيكية وغافلنا الجميع في لحظة غروب هادئة لا تخلو من نسمة شتائية لاذعة وهبطنا من الجبل. في الواقع لم يكن يسمح لنا بدخول القرية على اعتبار أن سكانها من العصاة الذين يتظاهرون بالولاء لسلطة الجيش المفروضة عليهم بقوّة السلاح، وفي مثل هذا الوضع يكونون أشد خطورة من العصاة الحقيقيين المتحصّنين في تجاويف ودهاليز وغابات الجبل الشائكة، فكان لا بد من اتخاذ إجراءات إحترازيّة متشدّدة في سبيل منع الجنود من الوصول إلى

القرية، وذلك بإقامة سور واسع من الأسلاك الشائكة، وإقامة العديد من نقاط الحراسة والدوريّات الليليَّة، إضافة إلى مضاعفة العقوبات الشديدة والحازمة في سبيل ردع المخالفين للأوامر العسكرية التي تحرّم اختلاط الجنود بأهل القرية لأي سبب كان. فأهل القرية من جانبهم لا يأمنون وجود غرباء مسلحين ليسوا من بني جلدتهم يكنّون لهم الكراهية المسبقة بينهم، والجنود بحكم صرامة الأوامر العسكرية وقسوتها ــ لا يجدون في القرية المتواضعة ما يشجعهم على مخالفة الأوامر، فظلّت العلاقات على ضوء هذه الاعتبارات ــ شبه مقطوعة، ومع هذا فقد وجدت بعد فترة قصيرة على إقامة المعسكر في الجبل، أكثر من ثغرة في الأسلاك الشائكة المحيطة بالمعسكر، وبالذات باتجاه القرية. وكلما رقعت أو أغلقت بمضاعفة الأسلاك عليها فتحت ثغرة أخرى في مكان آخر. ومع أننا الثلاثة، لم نغادر المعسكر منذ إقامته، فقد تسللنا من أقرب ثغرة صادفتنا باتجاه القرية وذلك لطلب الرحمة والمغفرة من بيت الله مباشرة، حتى أني شخصياً لم أفكر مطلقاً في حقيقة كوني لم أدخل جامعاً في حياتي قبل الآن، ولا أدري فيما إذا كنت أستطيع أن أكمل قراءة الفاتحة بدون أخطاء. في الواقع كان عامل الالتقاء الأساسي بيننا هو خندق واحد أشبه بمصير مشترك في زمن قلق، ولهذا ــ وبرغم كل خلافاتنا الجوهرية ــ محكوم علينا بالبقاء معاً، ويترتب على هذا أننا يجب أن نكون على اتفاق حتى في المسائل الخاطئة والمنحرفة، ويتألق هذا الإحساس بالمصير المشترك حين نتيقن من أننا مقبلون على عملية عسكرية خطيرة وليست مضمونة النتائج. قال حمدان ونحن نتلمس طريقنا حول حرش مدغل مسيَّج بالصخور الكلسية وأكوام الوحل ومسارب المياه:

ــ يمكن هذه العملية راح تقرر مصير أحدنا عالجبل... نحن لوهُم.

قلت موافقاً:

ــ بلا شك إنها عملية صعبة. كان آمر السرية يركض كالمجنون وهو يبلّغ الأوامر لبطاريات المدافع ومدرعات الاستطلاع.

قال حمدان متظاهراً بالاهتمام والغم:

ــ حتى آمر اللواء كان ثائر الأعصاب، يصرخ ويشتم. اللهم سترك.

قال العريف أدهم بصوت ثخين، أجش:

ــ لي أهل وزوجة وأطفال...

تنحنحت على نحو مقصود وأنا ألكز حمدان بكوعي:

ــ وغلمان مخلدون أيضاً...

لم يجب، إنما تعثر بصخرة فأخذ يلعنها بحنق وغيظ لا يخلوان من افتعال متحامل، ويلعن في الوقت ذاته من أتى به من آخر الدنيا إلى هذا المكان، فيما قال حمدان بلهجة حزينة تدل على قلب خاشع وروح متفتحة للإيمان:

ــ اللهم نعوذ بك من غضبك.

لا أدري لماذا أحسست في تلك اللحظة ــ ونحن نحث الخطى على مشارف القرية ــ بتصديق مطلق لتلك الضراعة وطلب الرحمة من إله لم يخطر ببالنا قبل الآن، أو بالأحرى تصديق تلك الحاجة القاهرة في مواجهة كل المخاوف المرتقبة بنفس مؤمنة تستطيع أن تتكىء على عكازة ما، مهما كان نوع هذه العكازة أو متانتها الفكرية. لعله مبدأ التشبث بالحياة، أو الاكتشاف ــ في لحظة صفاء ذهني ــ أن الله أقرب إلى الإنسان من نَفْسِه إلى نَفْسه. ليس لأننا نبغي كسب الجنَّة الموعودة أُسوة ببقية المؤمنين والصالحين، أو الحصول على رضاء المسؤولين، فهذه أشياء من السخف التفكير بها الآن، إنما هو ذلك الحس الخفي، المطمور تحت ركام هائل من الحماقات اليومية الصغيرة المنتشرة على امتداد حياتنا العابثة. ذلك الحس الديني الذي كنا نعتقد، قبل الآن، أنه تلاشى منذ فترة طويلة، ولكنه ــ وعلى غير توقع ــ نبع من العدم في لحظة الإحساس بالمواجهة. بل تجلّى كأقسى ما يكون التجلي حين أصبح الموت هو الهاجس المسيطر على أفكارنا... هل سنموت في العملية العسكرية القادمة؟ السؤال بحد ذاته ليس له أي معنى، بيد أن المعنى يكمن في صعوبة الإجابة عليه. المعنى يكمن في الغيب، وهذا الغيب يظل غيباً ما دام الإحساس بالموت ماكثاً في نفوسنا المستفزة، المثقلة بالذنوب والرزايا. وما دام الغيب يرفض أن يكون حاضراً واقعاً وملموساً فالسؤال الصعب مطروح بكل ثقله وقتامته فلا نجد أمامنا سوى الإتكاء على عكازة ما، وأكثر هذه العكازات أماناً وقرباً من الذات لأمثالنا هو الله، وكما هو معروف، فإن الإنسان يتذكر بأنه ليس مؤمناً كما ينبغي وهو يشيّع جثماناً إلى مقبرة، فكيف إذا كان هذا الجثمان ماكثاً في مقبرة روحه؟ ــ قطع أفكاري العريف أدهم قائلاً:

ــ يجب أن لا ندخل القرية...

في الواقع لم نكن بحاجة إلى مثل هذا التحذير، فالجامع أساساً يقع على طرف القرية من ناحية المعسكر بانحراف جزئي نحو الشرق، فما الذي يدعونا إلى دخول القرية ونحن إنما جئنا قاصدين بيت الله أُسوة بكل المؤمنين الصادقين على سطح الأرض. وليس بيوت الناس أُسوة ببقية الجنود؟

كان الجامع عبارة عن بيت قديم خرب. مبني من الصخور الجبليَّة السوداء مثل كل بيوت القرية، وسياجه الخارجي مجرد صخور متراكمة فوق بعضها، متماسكة بفعل الوحل وتراكم الأتربة، ولعل ميزة الجامع الظاهرة عن بيوت القرية هي مئذنته

الرمادية التي لا ترتفع أكثر من باع أو باعين فوق السقف الطيني. مئذنة حديدية صدئة وعتيقة مثبتة على السقف بواسطة ركائز خشبية يقف على قمتها هلال من الصفيح الداكن وبداخله نجمة حديديَّة ليست منتظمة الزوايا. وكانت مزق الغيوم السوداء المتراكبة المحترقة الحواشي ترقّع سماء باهتة، خالية من النجوم، وفي الأفق الملتحم مع قمم الجبال ما برح لون أحمر داكن يكسو أطراف الغيوم المتناثرة، وثمة نسمة شمالية باردة تصفع وجوهنا وتحرّك أغصان الأشجار وتحتك بتجاويف السفح الصخري فننشق أنوفنا بقوة بين فترة وأخرى. أما أصابعنا فقد تجمدت على البنادق فلم نجد أمامنا سوى أن نعلقها على أكتافنا ونخبىء أيدينا في جيوب سراويلنا الخاكي العريضة ونواصل سيرنا الحذر بين الأخاديد المائية نحو الجامع. من الواضح أن وقتاً قليلاً مضى على صلاة المغرب، وأن موعد صلاة العشاء لم يحن بعد، وأن ما بين الصلاتين هو كل الوقت الذي نستطيع أن نستثمره لطلب الرحمة والمغفرة من الله، على أن نعود بأقصى سرعة إلى المعسكر. تقدم العريف أدهم بخطى متوجسة ودفع الباب الخارجي للجامع. كان باباً من خشب البلوط السميك المرقع بصفائح التنك، فأحدث صريراً قابضاً وعنيفاً حال ارتطامه في جدار السياج مع أن الدفعة لم تكن قويّة. حمل العريف أدهم بندقيته بحالة تأهب وهو يلج الباب. فعلنا مثله مع أن أثراً لوجود أحد في الداخل وفي مثل هذا الوقت يبدو مستبعداً، فالسكون شامل، والريح الرطبة تحتك بالسقف المتهدل محدثة أنيناً خافتاً ومكتوماً يدعو إلى الإحساس بالغربة والخشوع. حين توقف عريف أدهم عند مدخل المحراب تساءل حمدان وهو يعيد تعليق البندقية على كتفه:

ـ ألا نتوضأ...؟

نقل عريف أدهم بصره المتسائل بين الجامع ووجه حمدان قبل أن يقول:

ـ لا داعي لذلك. أضاف أحد يجي قبل أن نكمل صلاتنا.

أضاف بحزم كما هي عادته حين يلقي أوامره العسكرية التي لا تقبل الاعتراض أو المناقشة:

ـ وقتنا ضيّق.

أيّدته بهزّة من رأسي وأنا أعلّق بندقيتي على كتفي. قال حمدان معترضاً:

ـ ولكن هذا لا يجوز شرعاً.

قلت محاولاً حسم الأمر:

ـ إن الله سبحانه يعلم كل شيء، وسيقدّر حتمًا ظروفنا الصعبة. المهم أننا جئنا بقلوب صافية ونوايا صادقة لنطلب الرحمة والغفران.

ولكن حمدان هتف متسائلاً باستغراب:

ـ حتى أحذيتنا لا نخلعها؟!

في هذه الأثناء كان العريف أدهم قد اجتاز عتبة الباب المفضي إلى صحن الجامع، ولكنه فجأة توقف وظهره العريض يسدّ أكثر من نصف الباب. أشار لنا بيده من غير أن يستدير نحونا:

ـ تعالوا شوفوا...

إندفعنا إلى الداخل بفضول، كانت فتاة قروية في حدود العاشرة أو أكثر قليلاً، تلصق ظهرها بالجدار وتحدجنا بذعر واستغراب. ترتدي ثوباً من البوبلين العتيق وصديرية صفراء قديمة، وتعصب رأسها بمنديل حريري أخضر، حافية القدمين، شاحبة الوجه، نحيلة العود، وعند قدميها المتربتين يرقد إناء نحاسي مغطى بمنشفة عتيقة، تفوح منه رائحة برغل وفجل وبصل أخضر، من الواضح أنها جاءت بالأكل لإنسان ما، فلم تجده فآثرت الانتظار. كان صحن الجامع من الداخل مفروشاً بحصران الخيزران وأغصان الأشجار المحاكة يدوياً، وهناك ثلاثة مساند خشبية أو أربعة مركونة بالقرب من المحراب الذي طلي بالجص وكتبت عليه الأحاديث النبوية والأقوال المأثورة. وثمة ثلاثة مصاحف بأغلفة كتانيَّة خشنة معلقة على الجدران. تراجعت الفتاة بذعر كما لو أنها تحاول عبثاً الاختباء بين فجوات الجدار الصخري المتعرج. تبادلنا النظر فيما بيننا بصمت وعدنا إلى تأملها بإمعان ودقة، بينما كانت هي تركز بصرها الحاد في وجوهنا المحيطة بها. ترمقنا بعدوانية وتحفّز. وكان ثمة فانوس زيتي مضاء يلتصق بالجدار الصخري، ينشر ضوءاً قاتماً ومرتعشاً ولكنه كان ينعكس بحدَّة في وميض عينيها السوداوين المبحلقتين بذعر أخرس. تساءل العريف أدهم:

ـ إنتِ كرديَّة؟

لم تجب، إنما وقفت بتصلب وحدجتنا بذات العداء والذعر المتوحشين. وكانت الريح الرطبة، في الخارج، ما برحت تحتك بالسقف المترهل، فيسترسل في السكون البارد أنين مكتوم وخافت، كنواح مرير يأتي من مكان بعيد. قال حمدان معقباً بصوت هامس:

ـ يمكن تركمانيَّة!

تفرست فيها بدقة وتركيز، ورعشة واخزة تنتاب جسدي كلّه. قال العريف أدهم وقد وضحت نواياه الخفيَّة في تهدج صوته الثخين:

ـ كلهن سواء... المهم...

وفجأة وثبت الفتاة باتجاه زاوية المحراب اليسرى بحركة مباغتة وسريعة، بيد أن العريف أدهم كان أسرعنا في الاستجابة لهذه الحركة غير المتوقعة، فانطلق ـ برغم ضخامة جسده ـ قافزاً وبسرعة عالية ليسدّ عليها الطريق. كان هناك باب صغير، أو لعله مجرد صدع في الجدار لم ننتبه إلى وجوده حال دخولنا محراب الصلاة، فقد أسدلت عليه قطعة قماش عتيقة ليس من السهولة تمييز لونها المترب عن لون الجدار بمثل هذا الضوء الرديء. تراجعت الفتاة متهيبة من غير أن يفارق بصرها جسد العريف أدهم الضخم وهو يسدّ عليها المنفذ الوحيد المتبقي أمامها. وقفت في منتصف الجامع تماماً ونقلت بين وجوهنا المحيطة بها بصراً زائغاً يرشح ذعراً وهلعاً. تقدم العريف أدهم منها قليلاً ولكنها تراجعت بتحفّز وارتياب. قال حمدان منتحلاً ابتسامة عريضة لم يفلح في أن يجعلها مقنعة:

ـ هل أنت خائفة؟

ولكن السؤال كان بلا معنى، فالفتاة مشلولة من الخوف، مرتبكة، قلقة، لا تدري كيف تواجه موقفاً على هذه الدرجة من الخطورة، والذي يظهر أنها لم تكن تنتظره أو تحسب له حساباً. وكان وجهها المدوَّر يزداد شحوباً وامتقاعاً. تقدمنا أنا وحمدان نحوها فتراجعت إلى الوراء مبهورة الأنفاس ولكنها متوثبة للعراك. أشرت لها بيدي إشارات هوجاء ليست متقنة أعني بها أننا لا نريد لها الشر، ولكنها كانت تتوسم فينا مصدر كل شرور العالم ورعبه، ولهذا حين ضاقت عليها الدائرة عادت ثانية لتلتصق بالجدار زامَّة فمها الجاف بحقد ومرارة، رامشة بعينين نديتين، فاحمتين، قبل أن يستقر بصرها المذعور على وجهي. للحظة سريعة وخاطفة التقت نظراتنا ـ من غير أن نطرق ـ في سكون الجامع العصيب. قال العريف أدهم وهو يلتفت نحوي التفاتة سريعة:

ـ يمكن خايفة من البنادق؟

أشرت لها بإصبعي على البندقية، ولكنها على ما يبدو ـ ومن خلال ملامحها المنقبضة ـ لم تكن خائفة من البنادق وحدها، إنما من كل شيء يمتّ بصلة إلى وجودنا في هذا المكان، ووجودها بالمقابل في هذه الزاوية الضيِّقة. ظلّت صامتة تزرع بصرها المرعوب في وجوهنا الجامدة. رمينا بنادقنا على أرضية الجامع ووقفنا حولها بنصف دائرة من الخاكي، حيث أن النصف الآخر كان زاوية جدار الجامع الذي التصقت به التصاقاً مستميتاً. خفضت بصرها نحو البنادق التي كانت راقدة على الأرض باطمئنان غريب كجثث باردة ولكنها تنبض بالرعب والجنون. تقدمنا نحوها هذه المرَّة بلا بنادق، فرفعت نحونا وجهاً شاحباً مخضلاً بالدموع. طالعتنا بعينين محمرتين ومتوسلتين، ولكن الدائرة كانت تضيق ببطء وتوجس. وحين آمنت أن لا فائدة من مواصلة استعطافنا، وكمحاولة يائسة وأخيرة وثبت باندفاع شرس تحاول اختراق دائرة الخاكي الضيِّقة. بيد أن حذاء العريف أدهم الثقيل عاجلها بركلة قوية على بطنها فندَّت عنها شهقة ملتاعة، مثل أنَّة لبوة فوجئت بطعنة قاتلة. ارتطمت بالجدار الصخري وتهاوت متعثرة على حصير الخيزران بجانب المحراب. هجم عليها العريف أدهم حين حاولت النهوض فقبض على يديها وركع بثقله فوقها. أحكم حمدان القبض على قدميها الرافستين بهستيريا، فيما منعت بدوري رأسها من مواصلة تلك الحركات اليائسة والتي أصبحت الآن بلا معنى. إنطرح العريف أدهم فوقها كما ينطرح فيل فوق أرنب. تحرّك فمها تحت راحة يدي حركات مهمهمة فسحبتُ يدي خشية أن تعضني، ولكنها بدل أن تصرخ مستغيثة كما توقعت ندَّت عنها شهقة يائسة، متأوهة، وجحظت عيناها المذعورتان، وتشنج وجهها الشاحب، وانبلج فمها الصغير عن أسنان بيضاء مرصوفة بدقة. شخرت من أنفها، بعنف كما لو أنها تتشبث بآخر أنفاسها فتلوّى لسانها اللزج ببطء منزلقاً من بين أسنانها كما لو أنها على وشك أن تتقيأ. تأوهت بلوعة وإعياء ثم خلدت إلى السكون، وكان لهاث العريف أدهم ينحشر عاصفاً بالقرب من أذني كلهاث ثور هائج أعياه الركض فتوقف مترنحاً على حافة هاوية. سحب سرواله الخاكي إلى منتصف الفخذين محاولاً أن يستر مؤخرته وهو يهمس لحمدان بلا مبالاة:

ـ دورك...

تمدد حمدان فوقها فلم يواجه أية مقاومة كانت ساكنة تحملق في وجهي ببرود وعدم اهتمام وكأن الأمر لا يعنيها بشيء. تطلعت بذهول في عينيها النديتين الواسعتين فلم تطرف. تعالى لهاث حمدان لحظة بالقرب من أُذني ولكنها ظلت بعيدة عن كل ما يحدث. لم يطرأ أي تغيُّر عن ملامحها البليدة. حتى الأنين المتوجع توقف، فامتلأت من خلالها بسكون بارد، لا حياة فيه. نهض حمدان متعثراً بسرواله وهو يقبض على طرف السروال بيد ويدفعني باليد الثانية:

ـ دورك...

ما إن استلقيت فوقها حتى صدمتني لزوجة دافئة تبعث على الاشمئزاز. حشرت يدي بين فخذيها المنفرجين، وحين سحبتها وقرَّبتها من وجهي طالعتني خمسة أصابع مصبوغة بلوم الدم كأنياب وحش ضارٍ ما زال رابضاً فوق فريسته. استحثني العريف أدهم بصوت منخفض:

ـ أسرع... ماذا تنتظر؟

ـ أصابعي ما زالت مشرعة أمام عيني كحراب من الفولاذ سحبت للتو من أجساد آلاف الضحايا. همست بذهول:

— دم . . . إنه دم .

كما لو أننا أفقنا من كابوس رهيب، أو بالأحرى أفقنا على مثل هذا الكابوس الرهيب، فقد اختضت أجسادنا ونشف الدم من عروقنا حين دوى ارتطام الباب الخارجي للجامع بالسور الصخري. ثقب في سمعنا ذلك الصوت القابض والعنيف، بيد أنه هذه المرة بدا ضاجاً ووحشياً إلى حد لا يصدَّق. تلته على الفور إيقاعات قبقاب خشبي يدق الأرض بتمهل مما يدل على أنها لإنسان ما يسير متمهلاً، أو يجد مشقَّة في المسير. هتف العريف أدهم هامساً وهو يتطلع نحو الباب متحفزاً:

— اسمعوا . . . أكو واحد يمشي .

واستمعنا متوثبين. قلوبنا تدق في صدورنا بعنف، وكل واحد فينا يمسك علاَّقة سرواله بيديه الاثنتين، حيث أن سراويلنا لم تربط بالأحزمة، بل ولم تزرر كما ينبغي بعد. ولكن الخطوات المتمهلة لم تترك لنا فرصة عمل أي شيء فقد اقتربت منّا حدّ أننا لم نجد أمامنا سوى أن نركض بأقصى سرعة تجاه قطعة القماش الكالحة فوجدنا أنها نافذة واسعة مهدَّمة الأطراف فخرجنا منها متزاحمين وعلى نحوٍ لا يخلو من تدافع وارتباك. أما السور الخارجي فلم نجد صعوبة تذكر في تسلقه. انطلقنا نعدو بأقصى ما نملكه من سرعة نحو المعسكر متعثرين بالصخور ومصطدمين بجذوع الأشجار التي لم نعد نميزها بوضوح، إما بفعل الظلام الذي حلّ كثيفاً على سفح الجبل وإمَّا لشدة ذعرنا الأسود الذي استولى علينا في هذه اللحظة حد المهانة الموجعة. كنا نحاول عبثاً السيطرة على تصاعد أنفاسنا ونحن نجتاز ثغرة الأسلاك الشائكة، وحين دلفنا خيمتنا منهكين، مهدودي القوى انطرحنا بإعياء كل على فراشه. لم نشعل ضوءاً أو نأتي بحركة. كان يثقلنا صمت متشنج وعصيب. وكان الظلام يلهث متعباً في صدورنا المنقبضة، ومن الداخل يثقلنا فراغ رهيب وخانق فنلوذ بالصمت والظلام والذعر المستريب، بيد أن صمتنا القابض سرعان ما ينتهك ويعلن الظلام عن فوضاه المأساوية على شكل همس مبحوح:

— بنادقنا! . . . نسيناها بالجامع .

قالها حمدان بلا روح، لم أره وهو يستقيم على فراشه، إنما توجسته في الظلمة الخانقة كما لو أن الفراش قذفه خارج العالم. عاد الصمت المدوّخ يثقل صدورنا الضاجة بالفوضى والاضطراب، وعاد الظلام ليتجانس في أذهاننا المشوشة فتوضحت لنا على حين غرة أبعاد الكارثة التي كانت تحوم فوق رؤوسنا. إنهيار مباغت صاحبه ذهول بليد وإقرار بواقع لا نريد أن نقرّ به. دمدم العريف بصوت ضعيف ومتهدج:

— ما بقى على موعد العملية سوى ساعات قلائل . . . !

وعدنا من جديد لنختبىء في صمتنا الثقيل ونغوص في ظلامنا المزمن . . .

العراق — نينوى

□ □ □

دار الآداب تقدم

الدكتور شاكر خصباك

ابن بطوطة ورحلته

صدر حديثاً